الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

ملخص ما تقدم

« لم يعد أوديسيوس البطل اليوناني فيمن عاد إلى بلاده بعد حرب طروادة ، لأن نبتيون إله البحار كان عدواً لدوداً له فشرده في البحر — وكانت زوجة البطل من أجمل نساء البلاد فطمع فيها الطامعون كل يريدها زوجة له . فحاصروا منزل أوديسيوس ليرغموها على التزوج من أحدهم . وقد ثارت مينرفا ربة الحكمة لهذا فبدت للفتى تليماك بن أوديسيوس في صورة آدمية وجعلت تحرضه على البحث عن أبيه ، فزار لهذا الغرض ملكي پيلوس وأسبارطه ، صديق أبيه ، فأكرما وفادته ، وأخبره الأخير عما علم من أخبار أوديسيوس . وروع العشاق لما علموا ما كان من سفر تليماك فتربصوا له عند إحدى الجزر ليقتلوه في العودة . أما أوديسيوس فقد انتهى به المطاف في البحر إلى جزيرة سحيقة تسكنها إحدى عرائس الماء (كاليپسو) التي هويته وشغفها حبه فاحتجزته عندها حتى أرسل كبير الآلهة ولده (هرمز) بالحاح من مينرفا يأمر عروس الماء أن تعد مركباً لأوديسيوس يعود عليه إلى بلاده . وأبحر المسكين وما زال الموج يلعب به حتى كاد يغرقه نبتيون عند شاطئ جزيرة ملوك البحار — ولكنه نجا ونام منهوكا في غابة فوق السفح »

نام أوديسيوس منهوك القوى

وذهبت مينرفا تدبر له أمراً في شيريا ، بلد السلالة ذوى المجد من أبناء فياشيا — ملوك البحر الذين فروا من وجوه جيرانهم الجبابرة السيكلوپس — في العصر الخالي ، ونزلوا بهذا البلد ، فشادوا حصونه ، وأقاموا أسواره وتوزعوا أرضه المخصبة ، وأسكنوا الدور والقصور ، وأنشأوا المعابد للآلهة عرفاناً وشكراناً

وقضى ملكهم وزعيمهم نوزيتوس . . . ثم استوى على العرش من بعده ألكينوس ، حبيب الآلهة ، وصفي السماء

* * *

كانت الأميرة الحسناء ، نوزيكا ، ابنة ألكينوس الملك ؛ تغط كالملاك في نوم عميق بين وصيفتين رائعتين من وصيفاتها ، فوق سرير وثير في مخدعها الملكي الفاخر

وكان رتاج الباب محكما كأنه رتاج باب الجنة ، ولكن ذلك لم يقف بسبيل ربة الحكمة مينرفا ، التي خطرت الى الداخل كنسمة نادية من نسمات الصباح ، ووقفت لدى رأس ابنة الملك تزخرف لها هذا الحلم الفضي الجميل ، وكأنما تبدو لها في المنام في صورة صديقتها وأعز أترابها ابنة دماس الكريم :

« نوزيكا ! ياويح لك أيتها النؤوم المكسال ! أهكذا تهملين ملابسك وأنت موشكة أن تُزفي إلى عروســـك ، وعليها يتوقف مظهرك ومنظرك ورواؤك ، ورواء حاشيتك وسائر وصيفاتك ؛ كما يتوقف عليها زهو أبويك بين الناس . انهضي مع الفلق[1] فاذهبي بعطارفك إلى المغتسل عند ضفة النهر فاغسليها وأعديها ليوم زفافك ، يوم تودعين مرح هذا الشباب الخالي ... هلمي ! إني سأعاونك ،

(١) الفلق أول ضياء الصبح

أنت يا ساحرة ألباب شباب الفياشيين ! سلى أباك يرسل إليك عربة وبغالاً تحمل ثيابك ومطارفك إلى عُدْوةِ النهر حيث لا شاهد ولا رقيب . »

وانفتلت ميرقا ذات العينين الزرجديتين ، ورقت أسباب السماء حتى كانت فوق ذروة أولمب ... حيث السكون والهدوء والصمت ، وحيث مستقر الآلهة ، وحيث لا تعصف ريح ولا تتلبد سحاب ولا تدمع عين مطر ... وحيث السماء لازوردية صافية إلى الأبد

* * *

وخطرت أورورا فوق عرش المشرق ، وأرسلت من لدنها أميناً من رسل النور يداعب جَفْنَى نوزيكا ، فهبت وحلمها الجميل لما يفتأ يساور رأسها الصغير ، وهرعت من فورها تبحث عن أبويها تقص عليهما أنباء ما رأت . وقد ألْفَتْ أمها لدى المدفأ مكبة على غزل من صوف أرجوانى موشى بصبغ بحرى ، ومن حولها وصيفات يساعدنها ... ثم لقيت أباها يكاد يذهب ليترأس مجلس شيوخ المملكة ، فاستوقفته ، وكلمته فى العربة ، واحتجت بملابس إخوتها الخمسة الذين يستحيون أن يراقصوا العذارى فى الحفلات بملابس لاتليق بأبناء الملوك .. وعقد الخجل لسانها فلم تذكر مطارف زواجها وشفوف زفافها ... ولم يبخل أبوها بما طلبت ، بل أمر لها بعربة كبيرة عتيدة ودواب ، وزودتها أمها بأشربات وآكال وطيوب ومُرُوخ[1]

واستوت مع وصيفاتها فى العربة ، وساطت البغال فانطلقت تطوى الرحب إلى النهر حيث وقفت عند منعرج يترقرق فيه بلور الماء ، متدفقاً من نبع قريب . ومرّحت الدواب لترعى العشب الحلو النامى على حفافى الماء ، ثم أخذن فى غسل المطارف ونشرها فوق حصباء الشاطىء الذى طمه المد ونضحه الجزر ، واغتسلن بعد ذلك وتضمّخن ، وجلسن على شفا النهر يتبلّغْن بلقمات ، ثم نهضن فتلاعبن بالأكر ، وتغنّت ابنة الملك أعذب الأغانى ، وتثنت كما تثنى ديانا فى شعاف الجبال وفى يدها القوس والترس ، وتصيد الخنازير فى أرعانت — ومن حولها ربرب من عذارى الآلهة ، وابنة لانونا تقيه[1] عليهن وتدل ... كذا كانت تميس ابنة الملك ، فيكسف لألاؤها جمال الأخريات

وهنا ... شاءت ميرقا أن يهب أوديسيوس من نومه ، ليشهد الفيداء الهيفاء التى كُتب فى الأزل أن تقوده إلى المدينة ؛ ففيما كانت نوزيكا تضرب الكرة لتلقفها إحدى وصيفاتها ، إذا هى تعلو وتعلو ، ثم تدوّم كما يدوّم الطائر ، وتهوى فى العباب الصطخب وسط النهر ...

وصرخ العذارى صرخة داوية ، فانتفض أوديسيوس وهب مذعوراً مشدوهاً ليرى هذا المنظر العجب !

« ويحى ! أىّ بنى الموتى قُطّانٌ هنا ؟ ليت شعرى أشُوسٌ عرابيد أم كرام أجويد ! أوْه ! إنهن عرائس ماء تفزّعن فرجّعت الغير از أصداء صراخهن ، وتراقص الحباب فى العباب من جَرْسهن ، ونثنى الكلأ نشوة فى الوادى ! لأدانف نحوهن فأرى إليهن ... »

وخطر من دَغِيائيته[2] خطر ان الأسد هاجته العاصفة ، فانقدت فى عينيه جمرتان من غضب ، أو ظمئ فاشتدت غلته إلى الدماء ... وذأل[3] نحو العذارى ، فما إن رأينه حتى تفزعن

(١) ما يمسح به الجسم من دهن أو طيب أو غيرها

(١) هى ديانا

(٢) الدغيلة والدغل الشجر الملتف

(٣) ذأل ودأل مشى فى خفة ونشاط

وَوَلَّين مذعورات فى الشاطئ ذى النؤى . . .
إلا نوزيكا ؛ فقد نفخت فيها مينرفا من روحها ، ونزعت من فرائصها رجفة الخوف ، فوقفت شماء الأنف تنتظر القادم ...

وارتبك أوديسوس ولم يدر ماذا يصنع ؟ أيجثو تحت قدميها يتوسل ويتضرع ، أم يقف عن كثب يستعطف ، ويسأل الفتاة دثاراً ، ويرجوها أن تهديه إلى المدينة ؛ وآثر الثانية فتلطف ، ثم قال :

« عَمْرك الله أيتها الملكة ؛ أربَّة من الخالدات ، أم حسناء من بنى البشر ؟ أضرع إليك أن تجيبى ؛ فانك إن كنت ربة ، فما إخالك إلا ديانا ، ابنة سيد الأولب ؛ ولم لا ؟ ولك قسامتها ووسامتها وقدها الممشوق ، وحسنها السّوى ، وجمالها الروى ؛ أما إن كنت من بنات حواء ، فما أسعد آلك بك ، ولشد ما يزهون بجمالك ؛ كلما خطرت فى ملعب ، أو بَدَحْتِ[1] فى مرتع ... ثم ما أسعد الزوج الذى سيحظى بكل ذلك الجمال ، لا يضارعه فى العالم جمال ؛ ! ألا ما أروع ما تبقين كالنخلة اليانعة فى ديلوس ، عند مذبح أبوللو ، أيتها الأميرة ؛ ! ألا كم أعنى أن ألثم قدميك ، لولا ما ينتابنى من روع ، ويؤودنى من فزع — أنا — ذلك المُعنّى المحزون المشجون ؛ — أنا — ذلك العيى الموهون الذى أفلت من يد المنون أمس ، كشر له عن نابه فى ذلك البحر اللجى ، بعد سفرة عشرين يوما من جزيرة أوجيجيا ، وسط أنواء ولأواء ، وموج كالجبال حتى شاءت العناية أن تطرحنى بشطئانكم الحبيبة ؛ ولست أدرى ما خبأت لى المقادير بعد ؛ ولكن ، هل ترثى مليكتى من أجلى ، وهى أول من لقيت فى هذه الأرض بعد طول عنائى ، فترشدنى إلى مدينتها ، وتسبغ على — أسبغت عليها الآلهة كل ما تتمنى من هناءة وبُلهنية وقران قوى المرى لا تتطاول إليه أعين الأعداء — دثاراً يستر سوءتى ؟ »

وأجابته نوزيكا : « حياً أيها الغريب النازح وكرامة ؛ إن سيماك تدل على نبل ، وسَمْتك ينبىء عن رفعة ؛ اصطبر على ما ابتلاك به سيد الآلهة الذى بيده العزة ، يشقى من يشاء ، ويهب لمن يشاء . سأدلك إلى المدينة ، مدينة الفياشيين ملوك البحر ، التى أنا ابنة ملكها العظيم ألكينوس ، رب نعمائها ومصدر رخائها » وأومأت الى وصيفاتها وهى تقول : « مكانكن يا عذارى ؛ فيم فراركن هكذا من إنسىّ كريم ؟ لقد أبت الآلهة أن تطأ قدم عدو أرض أحبَّائها ، بلادنا المقدسة ، التى انعزلت فى لجج هذا الخضم عن كل العالم . إنه غريب ياعذارى ، جواب آفاق ، قذفه البحر الى شاطئنا ، فرحباً به ضيفاً من لدن زيوس ، وأهلاً بوفادته وسهلاً ... هلم إذن يا صُوَيحبات فقدمن له طعاماً وشرابا ، ثم هيئن له حماماً فى منعرج ظليل عند حفاف النهر »

وأهرع البنات فَقُدن أوديسيوس الى منعرج ذى ظلال وأفياء ، وأعددن له ثوباً وكساء ، وهيأن طيوباً يتضمخ بها إذا فرغ من حمامه ، وسألهن أن يذهبن بعيداً حتى لا يمترى أمامهن ، إذ « . . . لشد ما يخجلنى أن أبدو عاريا أمام الخرّد الحفرات ؛ » . . . وتهادين إلى مولاتهن يحدثنها بما قال : بينا هو قد انقذف فى الماء يغسل كاهله وحقويه مما جد عليهما من ملح اللجة ، وسعد فتضمخ بالطيب الثمين ، ثم أسبغ على بدنه العتيد ذلك الكساء الذى منحته إياه نوزيكا ، ومن أعجب العجب أن مينرفا نفسها كانت تعاونه فى تجميل خَلْقه ، وتزيل من شعره الكث

(١) مشية الحسناء.

الأشمث تلبداته التى كانت تبدو كأنها أزهار الخزامى ... ثم هى بعد كل ذلك تضفى عليه أمواها من البهاء تظلل بها صدارة ، كأنما هى فلكان الصناع يعمل حلية من فضة وذهب ، وجلس على الشاطىء فى رونق وروعة ، حتى إذا لمحته الأميرة العذراء أذهلها جماله ، وقالت لوصيفاتها : « تالله ياصويحبات لقد شككت فى حال هذا الرجل أول الأمر ، ولقد حسبته أفاكاً من رعاع الناس ، لولا أننى أثق أن الآلهة لا تسوق الى بلادها الحبيبة هذا الصنف من البشر ... أما هو الآن ، فاشد ما يشبه أرباب السماء : أواه : لوددت أن يكون لى زوج فى بهائه وحسن سَمْتِه ، على أن نبقى آخر الدهر هنا ... هلم ياوصيفات ... قدمن له طعاماً وخمراً »

ومددن أمامه سماطا كبيراً ، وزودنه بأحسن الأشربات والآكال ؛ وأخذ أوديسيوس فى أكلته حبياً متأدباً ، يرد عنه تلك المسغبة الطويلة التى أنهكته وأوهت قوته

ووضعت أحمال المطارف والثياب فوق العربة ، وشدت البغال ، واستوت الأميرة فى مكانها ، ثم هتفت بأوديسيوس فقالت له : « هلم أيها النازح الغريب ! إلى المدينة إذن ! إنى سأرشدك إلى قصر أبى ، حيث تلقاه فى جمع من أشراف الفياشيين وستنطلق وسط هذه الحقول ، وإن لى معك من أجل هذا الكلمة ... لقد بنيت مدينتنا فوق صخرة راسية ، وأحاط بها سور عظيم ، ثم وصل بينها وبين فُرْضتها جسر ضيق تقر على جانبه سفائننا ، رابضة متراصة ؛ ثم ينهض عندها معبد نبتيون العظيم ، وبجوار مسوق المدينة المبنى من الحجر الصلد ، حيث تباع حبال السفن وشراعها ، وحيث تصنع مجاذيفها وأكثر عتادها — لأن الفياشيين لا يعنون بشىء عنايتهم بهذه المنشآت فى البحر كالأعلام — والذى أخشاه أن يرانا الناس ثمة فيستهزئوا بنا ، وقد يسلقوننى بألسنة حداد ، قائلين فى سفاهة وتندر : ترى ؟ من يكون هذا الغريب النجيب الهرقلى الذى يقص أثر الأميرة ابنة الملك ؟ أى صدفة جمعت شملهما يا ترى ؟ سرعان ما نراها تزف اليه عرساً كاعبا ... قد يكون ضيفا غير محمود من أرض نائية ؛ أو ربما صادت بصلواتها وتسبيحها واحدا من الآلهة أبق من السماء ليقر فى حضنها الى الأبد ... الحمد لله الذى من عليها بزوج سعيد من بلاد غريبة يشبع أمانيها الجامحة بعد أن رفضت الأيدى الكثيرة التى تقدمت اليها من أبناء الفياشيين ... هكذا سيقول الناس إن رأونا أيها الرجل ، ولهم الحق ، فأنا نفسى لا أعفى من اللائمة فتاة عذراء تستبيح أن تمشى مكشوفة مع رجل غريب قبيل عرسها ... ولكن اصغ إلى : إنك واصل حتما الى أبى إذا اتبعت نصيحتى .. بعد قابل سيصل ركبنا الى حرج أشجار الحور المقدس النامى فى تخوم الطريق باسم ربة العدالة والحكمة مينرفا ... وإن عنده لنبعاً يترقرق وسط كلأ وأعشاب .... وإن عنده لحديقة أبى ، الجنة الضحوك المثناف ! قف ثمة حتى إذا دخلنا نحن المدينة وحصلنا فى بيت أبى ، فتقدم أنت وادخل المدينة واسأل أيا من الناس ، ولو طفلاً يافعاً ، عن قصر الكينوس الملك ، أبى الحبيب ، فانه معروف مشهور لا يضارعه منزل آخر فى سمته وأبهته ؛ فاذا دخلته فلا تتوان لحظة ، بل سر قُدُما حتى تلقى أمى جالسة لدى الموقد المتأجج بجانب عمود مرمرى مكبة على غزلها الصوفى الوشى بأصباغ البحر ، ومن حولها وصيفاتها يعاونها فى انجازه — وقريباً منها ترى أبى مستوياً على عرشه يطعم ويشرب كأحد آلهة الأولمب ... لا تكلمه ...